Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 49, No. 6, Supplement 1, 2022

Deanship of Scientific Research

The Occupied Marginal Space and Rebuilding Memory in the North Moroccan Novels

Said Elaimari [1]*, Elhassan Hjjij

Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Fez, Morocco.

Received: 27/7/2021
Revised: 25/8/2021
Accepted: 28/9/2021
Published: 30/12/2022

* *Corresponding author:*
elaimari.s.21@gmail.com

Citation: Elaimari, S., & Hjjij, E. (2022). The Occupied Marginal Space and Rebuilding Memory in the North Moroccan Novels. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *49*(6:), 14–23.
https://doi.org/10.35516/hum.v49i6:.3946

© 2022 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

This article aims to explore the patterns marking the occupied marginal space in Mohamed Ankar's novel "Barrio Málaga" from an aesthetic and artistic perspective that tracks the role of memory in shaping the occupied marginal space and reveals its realistic connotations and its sociological and ideological dimensions without digging deep into the historical aspects of the Spanish colonial period in the North of Morocco. Furthermore, the article seeks to highlight the historical dimensions of the novel from an interpretive perspective that considers the novel as a mirror reflecting another untold history, which is the history of the margin and its people as shaped in the memory, which is a mechanism for storing and rereading perspectives and attitudes according to a perceptual process that goes beyond the obsession of laying emphasis on the colonizer and the forms of resistance to its occupation and aims at highlighting the roles of this space in exposing the aspects of authoritarianism, oppression and injustice of the colonizer. Accordingly, the research findings reaffirm that both identifying the aspects of the marginal space in this novel and highlighting its working mechanisms and role in providing an imaginary portrayal of this space are likely to contribute to rebuilding the memory and identifying the aspects of correlation between the realistic and the imaginary to identify the symbolic and cultural connotations behind taking the margin as a framework for building an indicative process based on the space, which is not separate from the other narrative elements marking the narrative discourse.

Keywords: Space; margin; memory; occupation; realistic; imaginary.

الفضاء الهامشي المحتل وإعادة تشكيل الذاكرة في رواية الشمال المغربي

سعيد العيماري*، الحسان حجيج

جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس، المغرب

ملخّص

يروم هذا المقال البحث في الأنساق التي يتمظهر وفقها الفضاء الهامشي المحتل في رواية باريو مالقة لمحمد أنقار، وذلك من منطلق جمالي فني يتتبع دور الذاكرة في تشكيله ويكشف إيحاءاته الواقعية وأبعاده الاجتماعية والإيديولوجية، دون أن ينكب على البحث في الجوانب التاريخية التي ترصد واقع المرحلة الكولونيالية الإسبانية التي خضع لها الشمال المغربي، مع سعيه إلى إبراز الأبعاد التاريخية للرواية من منظور تأويلي يرى أنها تعرض تاريخا آخر مسكوتا عنه، تاريخ الهامش؛ مكانا وإنسانا كما يتشكل في الذاكرة بوصفها آلية تخزين وإعادة قراءة للتصورات والمواقف وفق سيرورة إدراكية تتجاوز هاجس تبئير الحدث حول المحتَل وأشكال مقاومة وجوده، وتهدف بالمقابل إلى إبراز أدوار هذا الفضاء في فضح أوجه التسلط والقهر والظلم الذي مارسه .وتبعا لذلك توصل البحث إلى نتائج تؤكد أن رصد تمظهرات فضاء الهامش في الرواية وإبراز آليات اشتغالها ودورها في بلورة صورة متخيلة عن هذا الفضاء من شأنها أن تسهم في إعادة بناء الذاكرة، ورصد أوجه التعالق بين الواقعي والتخييلي لتحديد الحمولات الرمزية والثقافية التي اختص بها اختيار الهامش إطارا لتشييد مسار دلالي ينطلق من مكون الفضاء ويعدُّه غير منفصل عن باقي المكونات السردية المميزة للخطاب الروائي.

الكلمات الدالة: الفضاء، الهامش، الذاكرة، الاحتلال، الواقعي، التخييلي.

المقدمة:

تكشف القراءة الأولية لرواية "باريو مالقة" (2015) للكاتب والناقد المغربي محمد أنقار (1946-2018) عن أنها رواية تندرج ضمن الأعمال التي جعلت اتجاهها السردي، من حيث الإطارُ الزمنيُّ الذي تجري فيه الأحداث، يستهدف العودة بالقارئ إلى الوضع الاجتماعي والسياسي والتربوي والثقافي بالمغرب خلال فترة الخضوع للاحتلال، شأنها في ذلك شأن روايات قاربت الواقع المغربي إبان هذه المرحلة من قبيل "دفنا الماضي" و"المعلم علي" لعبد الكريم غلاب، و"الريح الشتوية" لمبارك ربيع.. وغيرها من الأعمال الروائية التي أرست ملامح طور التأسيس المميز للرواية المغربية.

غير أنه، على خلاف روايات هذا الطور، يمكن القول إن العلامة المميزة لهذه الرواية، على مستوى المقاربة الموضوعاتية، تتحدد في كونها تنطلق أساسا من حصرها موضوع اهتمامها في تمظهرات الواقع الاجتماعي بالشمال المغربي الذي كان يخضع للاحتلال الإسباني، وخاصة منطقة تطوان وضواحيها، مع تركيز بؤرة أحداث الرواية على حياة الهامش التطواني، ممثلة في حي باريو مالقة، الفضاء الذي استمال مهاجرين من مناطق مختلفة، حيث توافدت عليه عدد من العائلات "الجبلية" من قبائل الريف هربا من وطأة الفقر والقحط، كما حلّت به أيضا أسر من مناطق "الداخل" المغربي، بل إن إسبان القاع الاجتماعي أيضا استقروا فيه بالرغم من هامشيته.

هكذا، يبدو أن هذا الاستقرار السكاني المتنوع بالباريو هو ما جعل أحداث الرواية تتبع "تاريخ" نشأة الحي والتحولات التي آل إليها، من خلال إبراز سياق هذه التحولات التي غالبا ما يتم تغييبها في التاريخ الرسمي، خاصة أن الأمر يتعلق بالهامش، وكذا الكشف عن الوضع الذي صار عليه طيلة فترة الاحتلال وبعد الاستقلال بقليل. وتبعا لذلك، لم يَكْتفِ السارد برصد واقع الهشاشة والمعاناة الاجتماعية التي كابدَها سكان الحي من المغاربة في هذا الحيز الجغرافي، بل إنه تجاوز حدود البُعدين الاجتماعي والنفسي اللذين تُبْنى وفقهما الأحداث في الرواية، وعمل على التأريخ للمكان بوصفه فضاءً يختزل كثيرا من مضمرات الذاكرة الجمعية التي يمكن أن تدفع إلى الشك في التاريخ الرسمي، وتعيد تأسيس خطاب جديد، مُتَخيّل بالنظر إلى مصدره، لكنه يظل بالرغم من ذلك إطارا يدفع إلى التفكير في حقيقة الماضي الذي نقرأ عنه في كتب التاريخ، ويتيح للإبداع الروائي تقديم قراءات بديلة؛ منطلقها فني جمالي، ما دام أن الخيال من الأركان الفنية التي ينبني عليها العمل الروائي، لكن عمليات التأويل تسهم في رصد كثير من المعطيات التي يحتمل أن تحرر الحقيقة التاريخية من القيود التي وضعها لها التاريخ الرسمي، كما أنه يخول لنا، أيضا، تأمل علاقتنا بالأمكنة التي لا نتخذها فضاء للاستقرار أو العبور فقط، وإنما بعدّها، أيضا، جزءا لا يتجزأ من وجودنا، وتجليا من تجليات الحياة وما تحمل من تناقضات تعكس واقعا اجتماعيا وسياسيا يُعَبّرُ المكانُ عن متغيراته.

إن ارتباط أحداث الرواية بالوضع المغربي خلال مرحلة الاحتلال، يدفع القارئ إلى طرح مجموعة من الأسئلة حول رهانات عودة التخييل الروائي من جديد إلى مقاربة إشكالات هذه المرحلة، وقد حُقّ بذلك لهذا القارئ أن يتساءل:

لماذا العودة من جديد إلى تاريخ المغرب إبان فترة الاحتلال بعدما أماطت كثير من الأعمال الروائية اللثام عن الوضع المغربي بمختلف مستوياته خلال هذه الفترة؟ ما الإضافات التي ستحققها رواية الألفية الثالثة وهي تعود بمُخَيّلة القارئ وذاكرته إلى هذا التاريخ؟ أثمة إشكالات أغفلتها رواية ما بعد الاستعمار لتسعى رواية "باريو مالقة" إلى مقاربتها؟ ما مدى قدرة الروائي على دفع الذاكرة إلى البوح من خلال نماذج الشخصيات التي اختارها؟ وإلى أي حد استطاعت الرواية التعبير عن مشكلات كيانية وجودية لم نستطع بعد التخلص منها بالرغم من أن نصف قرن تقريبا يفصل زمن الكتابة عن زمن الأحداث؟ أثمة شعور ضمني لدى الإنسان المغربي باستمرارية خضوعه للاحتلال والتهميش والتسلط بأشكال أخرى؟ أيمكن عدّ موضوعات الرواية "التاريخية" بديلا مستضمرا للواقع الذي نعيشه؟ ما حدود الانفصال عن الذاكرة حتى تعيد الرواية تذكير المجتمع المغربي بتاريخ مؤلم في ذاكرته لم يتسنَّ له بعد نسيانه؟ وإلى أي حد أسهمت، ببنائها الجمالي هذا، في تقديم رؤية تأويلية لجزء من هذا التاريخ؟ هل استطاعت الرواية تأسيس خطاب فني خاص بها؟ ما المميزات الجمالية التي اختصت بها؟ وما دورها في البناء السردي لنص تتضافر فيها مختلف المكونات السردية لتشكيل الدلالة الكلية التي يمكن أن تحيل إليها؟

1- المرجعية الاجتماعية للفضاء المكاني في الرواية:

حري بنا القول، في البداية وعلى وجه الإجمال، إن رواية "باريو مالقة" تقدم صورة عن مجتمع يعاني التهميش في فضاء زمكاني خاص، متجاوزة قضايا المقاومة الوطنية المطروحة في الرواية المغربية التي عادت إلى هاته الفترة التاريخية. ووفقا لذلك سعت إلى الكشف عن معاناة فئات القاع الاجتماعي مع تسلط من نوع آخر، عانى منه الأطفال على وجه الخصوص، فتشكلت لديهم أحلام وآمال للخلاص من قيود التهميش وأغلال الاحتلال ورعب "الفتوات" التي بطشت بالطفولة وانتزعت منها حياة البراءة والأمان والطمأنينة، بعد أن صار الخوف والقلق والتوتر جزءا لا يتجزأ من واقعها اليومي، لتمثل الرواية بذلك عودة إلى فضاء الطفولة بما هو فضاء ترتسم صورته في الذاكرة التي تعود إليه من منطلق يرى فيه باشلار أنه فضاء ألفة وحميمية، إذ اعتبر بيت الطفولة "ركننا في العالم، كوننا الأول، إنه حقا كون، كون بكل ما تحمل الكلمة من معنى" (باشلار، 1961)؛ متسائلا فيما يشبه الإثبات: "ألا يبدو، من خلال نظرة حميمية، أبأس بيت جميلا؟" (باشلار، مرجع سابق)، وهو التساؤل الذي يتناسب مع طبيعة الفضاء الذي يروم البحث دراسته، إذ إن اختيار الهامش، بما تؤثث فضاءاته من شخصيات وأشياء، يمثل إطارا لتنامي الأحداث، كما أن جعل الذات الساردة أفقَ تأملاتها مرتبطا به، يحيل بالضرورة إلى الحميمية والألفة التي تخلقها الذات مع الفضاء، بالرغم من المعاناة والبؤس اللذين لاقتهما الذات الساردة فيه.

1-1 العنوان مساقا للإحالة المرجعية إلى الهامش الاجتماعي:

يحضر التجلي الهامشي في الرواية بدءا من العنوان الذي اختاره الكاتب مسعى لعمله الروائي هذا: "باريو مالقة"، وهو عنوان يحمل أبعادا دلالية تكشف عن الأوجه المفترضة لاستعماله في مجريات المتن الروائي، ومن شأنه أن يخلّفَ أثرا بالنسبة للمتلقي الذي يعمل على تأويله "موظفا خلفيته المعرفية في استنطاق دواله الفقيرة عددا وقواعد تركيب وسياقا" (الجزار، 1998)، لذلك وجب التأكيد أن أحداث الرواية تسهم في تحديد المدلول، لأنها تتضمن إحالات مباشرة إلى الدلالات المستنبطة من عناصر العنوان.

أ- البعد اللغوي وامتداداته التاريخية:

إن القارئ العربي لنص "العنوان" يجد نفسه بصدد دال لفظي دخيل على اللغة العربية هو: "باريو El barrio"، لا يُستوعب مدلوله إلا عبر قراءة المتن، أو البحث عن المعادل الدلالي للفظ في لغة أجنبية عبر ترجمته، ولن تكون هذه اللغة إلا الإسبانية: أما المعادل، ففي الحالتين لا يخرج عن كونه هو "الحي". ويمكن إرجاع هذا الاستعمال إلى عدّ مفاده أن اللغة صارت جزءا من الهوية الجغرافية المميزة لسكان شمال المغرب، بعد أن بسط المحتل الإسباني سلطته على هاته المنطقة، وجعل اللغة الإسبانية تفرض وجودها في الخطاب الرسمي والشعبي آن ذاك، بل إن حضورها ما يزال مستمرا في الخطاب اليومي الذي أرسى استعمالها في وضعيات تواصلية مختلفة، على نحو يمزج بينها وبين "العربية الدارجة"، شأنها في ذلك شأن اللغة الفرنسية في المناطق التي كانت تخضع "للحماية" الفرنسية. وكأننا بصدد خطاب روائي يميط اللثام عن هيمنة من نوع آخر، تفصح على نحو واضح عن تسلط استعماري ثقافي رسَّخ وجوده في مختلف مناحي الحياة ما بعد الاستقلال، وذلك من خلال تمظهراته اللغوية التي أضحت تشكل جزءا من اللهجة المتداولة في المنطقة الشمالية التي يشكل باريو مالقة نموذجا هامشيا مصغرا لها.

كما أن حضور العنصر اللغوي الدخيل (باريو) في العنوان يشير أيضا إلى إمكانية توظيفه في المتن الروائي، وهو ما يمكن للقارئ ملاحظته على نحو واضح، إذ عمد الكاتب إلى دمج تعابير إسبانية بالحرف اللاتيني؛ سواء منها تلك التي تصدر عن سكان الباريو من المغاربة أو تلك التي تحاكي لسان شخصيات إسبانية توفرت لها ظروف الاستقرار بهذا الحي إلى جانب المغاربة؛ تعايشوا في ما بينهم، فدخلوا معهم في علاقات، أكدتها الرواية حين جاء على لسان الطفل "المديني": "مذ ولدنا وجدنا النصارى يعيشون بيننا كأنهم أصحاب الباريو ونحن الطارئون.." (أنقار، 2015)، قبل أن يتدارك "الإسكافي عبدالله" المهتم بشؤون الحي وتحولاته التاريخية من خلال ما يعرضه عليه "الفقيه الصنهاجي" من معارف، حين أكد أن "هجرة الإسبان بكثافة إلى الباريو حديثة العهد" (أنقار، مرجع سابق).

هكذا، فرضت اللغة الإسبانية وجودها، طيلة فترة الاحتلال، بما تحمل من خلفيات ثقافية، من خلال خطابها الذي كرسته المعاملات التجارية، كما أسهم كذلك في الإعلاء من شأنها المنهاج التعليمي، بعد أن صارت الأسر مجبرة على تعليم أبنائها الإسبانية، إلى جانب جعلها ملمحا ثقافيا مميزا للفئات المثقفة في ظل انتشار الجرائد والمجلات الإسبانية، بل إن الأفلام في القاعات السينمائية، التي غالبا ما تقبل عليها فئات الهامش لينفتحوا على عالم آخر بديل لواقع الألم الذي يعانونه، يتم عرض أغلبها باللغة الإسبانية.

لقد أكد نغوجي واثيونغو سلطة لغة المحتل حين اعتبر أن "الاستعمار مستمر في التحكم بالاقتصاد والسياسة وثقافات إفريقيا" (واثيونغو، 2011)، مضيفا أن اللغة تشكّل أحد وجوه تعريف الذات الجماعية في الزمان والمكان، إضافة إلى أنها توظف في النضال المستمر لمواجهة الاستعمار في مراحله النيو-كولونيالية، ذلك أن "اختيار اللغة، والاستعمال الذي وضعت فيه اللغة، أمر مركزي في معرفة الشعب ذاته في علاقته ببيئته الطبيعية والاجتماعية، بل في علاقته بالكون كله" (واثيونغو، 2011). من هنا، يتضح أن الاختيارات اللغوية التي اعتمدتها الرواية، تفصح عن حقيقة التحرر من قيود الاستعمار التي يعيشها المغاربة في حاضرهم، وذلك في ظل غياب هوية لغوية كفيلة بالتعبير عن المجتمع المغربي دون استدعائه مكونات لغوية أخرى اعتبرت من رواسب الاستعمار، ولعل الجدل الذي يثار، مؤخرا في الوسط السياسي المغربي، بخصوص لغة التدريس أكثر مثال دال على مشكل الاستقلالية اللغوية بوصفها جزءا من استقلال شعب/استقلال وطن، حيث أثير مشكل لغة التدريس في الخطاب السياسي المغربي على مستوى اعتماد الدارجة في مناهج الطور الابتدائي والفرنسية أو الإنجليزية لتدريس العلوم في مختلف الأسلاك، قبل أن يحسم المجلس الأعلى للتربية والتكوين من خلال الرؤية الاستراتيجية 2015-2030 لإصلاح منظومة التعليم، ليتم الإقرار باعتماد اللغة العربية لغة أساسية في منهاج التعليم الابتدائي، واللغة الفرنسية لتدريس العلوم في السلك الثانوي الإعدادي والتأهيلي، إلى جانب خيار اعتماد لغة أخرى كالإنجليزية والإسبانية.

أما لفظ "مالقة" المرتبط بلفظ "باريو" عن طريق علاقة الإضافة، فهو مألوف عند القارئ العربي دون أدنى شك، ذلك أنه يعود بذاكرته إلى "الفردوس المفقود"، الأندلس، هناك حيث كان العرب يبسطون نفوذهم في شبه الجزيرة الإيبيرية طيلة قرون، إلى أن طُردوا من المكان، وظل المُسمّى حاضرا عند المهجّرين "المالقيين" كما عند الإسبان "Malaga". وفي حضوره هذا إيحاء بسلطة "المُسمّى" الذي من شأنه أن يُخلِّد التاريخ، ويدفعنا باستمرار إلى التذكر وتجنب نسيان الماضي، على عدّ أنه سيكون دافعا لبناء المستقبل واستشراف المآلات؛ فكما حَضَرَ الإسبانُ بالمغرب إبان زمن الحماية/الاحتلال، كان للمغاربة أيضا وجودهم التاريخي في أرض الإسبان، ومسميات الأمكنة وبعض الاستعمالات اللغوية في التعابير الإسبانية مؤشر صريح دال على ذلك.

يتعلق الأمر، إذن، في عنوان هذه الرواية بإحالة لغوية إلى فضاء مكاني يعكس مسماه الوعي بالتأثير الإسباني اللغوي الممتد إلى كثير من أسماء الأماكن

بأحياء مدن الشمال المغربي، مع ما يعني ذلك من ارتباط بالهوية التي تعكسها اللغة، إذ إنها ترمز إلى واقع ثقافي محصور في الزمان والمكان، إلا أنه ينفتح على الواقع الذي لا نعيشه بالضرورة في فضاء الباريو الذي تتأطر فيه أحداث الرواية، وإنما يمكن أن ينعكس على فضاءات أخرى في المغرب أو خارجه؛ ولا غرابة في أن تعبر اللغة عن هذا الواقع الثقافي ما دامت أنها تمثل "نسقا من العلامات Signes نعده ذا قيمة ثقافية، لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها. فهم يرون أن استخدامهم للغتهم رمزٌ لهويتهم الاجتماعية، ومنعُ استخدامها رفضٌ لهويتهم الاجتماعية وثقافتهم" (كرامش، 2010)، وما الاستعمال الروائي لهذه الازدواجية اللغوية إلا دليل على الارتباط الوثيق الصلة لهذه الرواية بقضايا مجتمع الهامش في فضاء محدد جغرافيا بدقة المسمّى، لكنه يحمل أيضا أبعادا متخيّلة ما دام أن الأمر يتعلق باستعادة الزمن الماضي عبر المشاهد التي تتحرك فيها الشخصيات في فضاءات الباريو المختلفة، وفقا للزاوية التي يتوخى السارد من خلالها عرضها بتفصيل أو اختزال.

ب- البعد الجغرافي ودلالاته الو اقعية:

استنادا إلى بنائه المرجعي المرتبط بحضوره الحقيقي في الواقع، يمكن القول إن "باريو مالقة" يمثل فضاءً جغرافيا يحيل على نحو مباشر إلى أحد الأحياء الهامشية بمدينة تطوان في شمال المغرب، "عاصمة" الاحتلال الإسباني خلال فترة الحماية (1912-1956)، والظاهر أن هذا التحديد الجغرافي، وضعت له الرواية وصفا دقيقا، يبيّن الحدود التي تدخل في مجاله، بدءا من النشأة التي بينت الرواية أصولها، إذ أشارت إلى أن هذه الضاحية، "المشرعة على الهواء والشمس والخضرة"، عُرفت "باسم الولي الصالح سيدي طلحة. سميت بذلك منطقة الأغراس والحقول والسواقي والأراضي الزراعية الواقعة غرب ضريح سيدي طلحة الدرّيج المنتسب إلى أصول أندلسية" (أنقار، مرجع سابق)، وصولا إلى التوسع الذي جعل هذه الضاحية "تشتهر بالاسم الإسباني "باريو مالقة" (أنقار، مرجع سابق)، كما بينت ذلك شخصية "الفقيه الصنهاجي"، الذي عُد مصدرا للحقيقة بوصفه "مؤرخ" الحي، حيث "أتاحت له الإقامة الطويلة في الباريو اكتساب معلومات هائلة عن الحارة وأصحابها القدامى، فعُدّ في هذا المضمار حجة" (أنقار، مرجع سابق)؛ له درايته بالمجال كما وصفه حين رآه مجموعة "أراضي فسيحة خصبة، وكلما انحدرتْ نحو الأسفل جهة واد المحنش زادت طبيعتها الطينية وضوحا، تميزت بأشجارها وأغراسها وقصبها وأحجارها ومطباتها ومنعرجاتها وعيون مائها وآبارها" (أنقار، مرجع سابق)؛ لترصده الرواية وتتبع تفاصيله بعد أن صار تجمعا سكانيا هامشيا في الضاحية التطوانية، يمتد من" ضريح سيدي طلحة إلى جامع مزواق" (أنقار، مرجع سابق).

استنادا إلى ذلك، يظهر أن الخطاب اللغوي القائم على الجوانب المتعلقة بالتفضية في الرواية يمثل دالا معرفيا، إذ بدا واضحا أنه من خلال عنوان الرواية فقط (باريو مالقة)، تم اعتماد مدلولات جغرافية مرتبطة بالمكان، لا شك في أنها تنسجم مع المشاهد التي وقفت عندها الرواية، وتبعا لهذه الاستعمالات "يمكن قراءة الرواية على أنها تستعمل المشهد لتقترح جغرافية للمعرفة" (كرنغ، 2005)؛ ومن هذا المنظور، يظهر أن الرواية ليست مجرد عمل إبداعي منعزل عن الفنون والعلوم الأخرى، ما دامت أن كل قراءة تأويلية لها تتيح إمكانات دلالية تصب في علوم أخرى؛ نرى هنا أن خطاب العنوان يتخذ الفضاء وسيلة للإشارة إليها، حيث يختزل معارف جغرافية وأخرى تاريخية واجتماعية وسياسية.

1-2 أنساق تهميش الهامش؛ من التخييل إلى الو اقع:

يمكن عدّ هذه الرواية وسيلة اتخذها الكاتب لعرض كثير من الإشكالات النابعة من تجربته في الحياة، ومن رؤيته الخاصة للواقع، ومواقفه تجاه قضايا المجتمع ورهاناته، وهو أمر يستجيب له الخطاب الروائي بحكم أن"الرواية الإيجابية" حسب حميد لحمداني "هي التي تتجاوز في رؤيتها ما هو موجود في الواقع، من أجل البحث عن قيم أصيلة غير موجودة في الواقع، وهذا سر القيمة الإنسانية والفنية لأي عمل إبداعي، على عدّ أنه ليس عملا ثانويا في حياة الإنسان، وإنما يساهم في تأسيس المستقبل الإنساني" (لحمِداني، 1985). إنه، من منظور آخر، فن يقدم صورة عن مجتمع ويكشف عن قيم سائدة، ليستشرف المستقبل ويقدم اقتراحات بديلة انطلاقا من تشريح المشكلات التي يعانيها الفرد والمجتمع؛ وهو ما تسهم دراسة الفضاء في تحقيقه بالمفهوم الذي يرى أنه يمثل "دراسة شاملة للنص في أمكنته وشخصياته وأحداثه وزمانه وخطابه الأدبي، الذي يحمل في مراحله كلها طاقات من التشكيلات الجمالية واللسانية والثقافية وممارسات المعرفة ودلالاتها الاجتماعية والسياسية" (الشيخ، 2019). ومن ثمة يمكن عدّ الفضاء إطارا عاما يحتوي هذا الكل الذي يؤسس للخطاب الروائي أوجهَ الترابط بين التخييلي (فضاءات الباريو في الرواية) والواقعي (أحياء الهامش في مدن الشمال المغربي).

انتظمت الرواية، التي ناهزت صفحاتها الأربعمائة صفحة من الحجم المتوسط، وفق سبعة وستين فصلا، اختار الروائي لكل فصل منها عنوانا، اتسقت في ما بينها من خلال فضاء باريو مالقة، فلم تخرج بذلك عناوين هذه الفصول عن كونها تحيل إلى جزء مرتبط بهذا الفضاء، حيث تعمل جميعها على تبيان أوجه التهميش التي تحضر في أحياء الهامش، لتنقل الصورة من حيز التخييل إلى حيز الواقع، اعتمادا على رصد جزئيات المكان والنماذج البشرية المؤثثة له عبر عملية "تشخيص الأشياء والشخوص الناتجة عما نسميه اليوم الوصفَ" (جُنيت، 1969).

ومنه، يلاحظ أن عناوين فصول الرواية لا تخرج عن كونها تشير إلى:

- أحداث ميزت الحي (اختطاف – اغتصاب – تحرش – الجوع – مباراة – جنازة...).
- أو "شخصيات"/نماذج بشرية من ساكنة الحي (الفقيه الصنهاجي – عبدالله الإسكافي – علي وعويشة – عمر وفطوش – زينب – السعدية...).
- أو أحوال الشخصيات (مرض – انتقام – نقاهة – رسالة غرام – ضريبة الغرام – نهاية الغرام – مصائر...).

- أو علاقة المغاربة بالشخصيات الإسبانية (الشيخ عمر يعشق الكطلانية – قطيع خوليان – ظهور أنخيل – أفول نجم خوليان...).
- أو أجزاء مميزة في الحي (سيدي طلحة - حارة الباريو – البراريك – مدرسة سيدي الزواق – الكشك...).

وقد انعكس هذا التنوع في موضوعات فصول الرواية على حركية السرد ومسار الأحداث، ذلك أن الخط السردي المعتمد فيها يروم رصد مختلف العناصر التي أثثت فضاء باريو مالقة، وخاصة منها النماذج البشرية التي تجسدها الشخصيات بأحوالها ومواقفها وعلاقاتها المتباينة. بيد أن أهم ملمح يمكن حصرها في إطاره يتحدد أساسا في فضاء الهامش بوصفه مصيرا مشتركا للشخصيات وعنصرا جامعا لهاته الموضوعات، حيث تتمظهر صور مختلفة لوضعيات اجتماعية كشفت عن واقع البؤس والفقر بملامحه التي رصدها السارد من خلال وصف الأمكنة وعرض تفاصيلها، بحكم أن طبيعة فن الرواية تفرض تتبع السارد جزئيات الفضاء، بوصفه "لوحة فنية"، وهو ما يسهم في وضع الحدث والشخصيات في إطار ومقصدية محددين؛ فأن نقول "مكان بديع" حسب ميشال بيتور يجعلنا "في حاجة إلى التفاصيل، إلى عينة من هذا الديكور: أغراض، أثاث، تلعب دور الدليل" (بيتور، 1986)، كما هو الحال في الفصل الذي خصصه السارد "للبراريك"، حيث كشف عن أبعاد التهميش التي تتمظهر فيه، لينقلنا من حيز المتخيل إلى حيز الواقع، إذ سرعان ما يدرك المتلقي أن صورة هذه البراريك ما زالت تؤثث كثيرا من فضاءات مدن الألفية الثالثة، بل إنها تتناسل وتتكاثر بالرغم من ادعاءات الحد منها، بحيث إن "المدينة كلما كبرت واقتربت من النموذج الميتروبوليتاني، المليوني السكان، تجد الهامش ازداد هامشية، ومتن المدينة ازداد تمركزا وتقوقعا ورفضا وإخفاء للهامش" (الطائي، 2015). وهكذا ستتخذ أوجه المفارقة بين الهامش والمركز تمظهراتها على مستوى فضاءات الباريو والشخصيات التي تتحرك فيه، حيث يسود البؤس والفقر والقهر في مقابل ما تعرفه الفضاءات التي اتخذها المحتل علامة دالة عليه.

هكذا عمد السارد إلى إبراز هذا الهامش لينقلنا من التخييل الذي تفرضه الرواية والاشتغال الفني، إلى الواقع الذي يتحقق عبر المسح الوصفي الشامل؛ القائم على المقابلة بين العالم الواقعي وعالم الرواية، وهو ما يفرض علينا أن ننظر "إلى الفضاء وإلى الوصف بالخصوص لا بوصفهما عنصرين للاستراحة الحكائية، وإنما كأساسين من أسس بناء عملية تحول المعنى في النص الروائي" (نجمي، 2000)، إذ يظهر أن السارد سعى إلى ربط تطور المسار الدلالي للرواية بالاستناد إلى عمليات وصف فضاءات الباريو، وكأنه يقدم بذلك صورة موضوعية لواقع ماضوي ارتسم في الذاكرة لكن تبعاته ظلت مستمرة، حيث عمل على تبيان:

أ- المكونات التي يعتمدها المهاجر الوافد على الحي لتركيب "البراكة":

حيث عمل السارد على عرض مكونات "البراكة" بالاستناد إلى وصف دقيق، يدفع إلى تخيلها والتأمل في هندستها؛ وكأننا بصدد تصميم هندسي أو صورة تشكيلية رسمها السارد عبر اللغة، ليرصد مشهدا يختار له من التعابير اللغوية الوصفية ما يضفي عليه سمة تقديم منظور خاص للموصوف، تتحكم فيه خلفيته الثقافية والإيديولوجية. لا يعني ذلك أن الوصف يمارس سلطة على السرد، أو العكس، بقدر ما يؤكد وجود تناغم وانسجام بينهما، ذلك أن توقف إيقاع السرد يسهم في بلورة صورة جمالية خاصة تركز على كل العناصر الدالة التي سيتحرك السرد في إطارها. وبمعنى أكثر دقة، لا ينبغي النظر إلى الوصف هنا على أنه يوظف لمجرد التزيين أو الترف اللغوي الوصفي، ولكن بعدّه "الحامل الحقيقي لعمق إدراك الكاتب لعالمه الخاص وللعالم بصفة عامة، وضمنيا أصبح معيارا لقياس درجة سمك وعمق إدراك الشخصيات لعالمه، سواء على المستوى المعرفي أو الإيديولوجي" (محفوظ، 2009). وتبعا لذلك سيشكل الوصف آلية للتفضية اللغوية، إذ إن البناء اللغوي الذي يختاره السارد هو الذي يحدد صورة الفضاءات في بعدها المرجعي الذي يفترض أنه "يمكننا العثور على موقع معين لها إما في الواقع، أو في أحد المصنفات الجغرافية أو التاريخية القديمة" (يقطين، 1997)، وهو ما يدل عليه مسمى الحي وموقعه الذي ما زال إلى الآن في مدينة تطوان، أو دلالات هذه الفضاءات التخييلية "التي يصعب الذهاب إلى تأكيد مرجعية محددة لها سواء من حيث اسمها الذي به تتميز، أو صفتها التي تنعت بها" (يقطين، مرجع سابق)؛ إذ لا يخفى على كل قارئ للفن الروائي أن مرجعية الفضاء فيها لا يمكن أن تكون واقعية/حقيقية بالمطلق إلا بالقدر الذي يريد الروائي أن يحققه لها، كما هو الحال بالنسبة لفضاء الباريو وبراريكه في هاته الرواية.

وعليه، يتضح أنه تم رصد البراريك في فضاء الباريو وعرض الصورة المميزة لها بالاستناد إلى رؤية خاصة يتحكم فيها وعي الكاتب وذائقته التخييلية، على عدّ أن التخييل ما هو إلا "محيط معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة من بعض جوانبها" (جبار، 2012). ولنا في هذا المقطع الوصفي خير مثال على هذا الترابط بين التخييل والحقيقة، إذ عمد السارد إلى إبراز الشكل العام للبراريك خلال فترة الاحتلال الاسباني: "صفائح قصديرية متباينة الأشكال والأحجام، كل شيء يصلح؛ صفائح البراميل وهياكل السيارات الهالكة، وفي أحيان نادرة يشتري صفائح قصديرية جديدة ولامعة من خزائن باب التوات. أما السطح فيُمد فوق دعامات خشبية ثم يبلط بالطين الأصفر والإسمنت، ثم تُبيض البراكة من داخلها وخارجها بالجير الممزوج بالنيلة الزرقاء." (أنقار، مرجع سابق). بل إنه وقف أيضا على الهيكل الداخلي للبراكة: "أربع غرف قصديرية تشكل في ما بينها دارا وما هي بالدار" (أنقار، مرجع سابق)، جاعلا بذلك الفضاء الهندسي يتخذ شكلَ حضوره "من خلال طوبوغرافيا الأمكنة النصية، وحتى من خلال الأشياء، ليرتبط بموضوعات العزلة والإبداع، العنف والحميمية، وليكون الشكل الهندسي استعارة فضائية تشير إلى دلالات خاصة" (بلشم، 2018)، حيث أضحت صورة فضاءات الباريو تفصح عن وضعية الهشاشة والقهر والبؤس، في تماه مع أحوال قاطني براريكه.

ب- ظروف عيش سكان "البراريك" وطابع التعايش مع الآخر:

إذ نسجل أن الرواية تبرز السياق الذي صارت فيه الكثافة السكانية مرتفعة مع توافد المهاجرين من المغاربة والإسبان على الباريو، فأضحى الحي "براريك قصديرية متلاصقة من طابق واحد، تركوا في ما بينها منعرجات وعرة بمثابة دروب طالعة وهابطة في نفس الآن" (أنقار، مرجع سابق)، ليتحول "الباريو" إلى "أكبر تجمع صفيحي في تطوان" (أنقار، مرجع سابق)، ينعدم فيه الربط بالماء والكهرباء والصرف الصحي، وقد بين السارد الوضع المزري الذي يعانيه السكان مع الفضلات، حيث إن "النفايات السائلة تتسرب إلى الدروب الضيقة المنحدرة لتصب في ساقية الواد الحار العاري الذي يمضي منحدرا إلى أن يصب بدوره في الخندق القريب من المزبلة سفح الكريان" (أنقار، مرجع سابق). كما عانى السكان داخل براريكهم من غياب المرافق الصحية، مع ما يخلف ذلك من آثار جسيمة على ساكن البرّاكة وجيرانه. وقد صور السارد مشهدا من مشاهد حياة التهميش في فضاء البراكة، ممثلا لهذا الوضع المزري الذي يتعايش فيه الإنسان مع فضلاته بما تمارسه شخصية السُّعدية، في ظل أزماتها النفسية، ومن خلالها سكان البراريك المجاورة؛ إذ إنها "تتبول وتتغوط داخل براكتها. وفي الصباح الباكر يسمعها الجميع ترمي نفاياتها العطنة في المرحاض فتزكم الروائح الكريهة الحوش كله. وغالبا ما تترك السعدية البول يندلق من تحت باب براكتها نحو السويحة المضربة فتحتج الجارات وتضْرِبْنَ عن القيام بنوبة التنظيف" (أنقار، مرجع سابق).

إن أوضاع التهميش ومشاهد التحقير الإنساني اعتاد عليها سكان البارايك، بيد أنهم بالرغم من كل ذلك ظلوا "يعتزون بالانتماء إلى الأرض التي آوتهم ويستشعرون الآصرة الحميمة بين أركانها القصديرية وروائحها العطنة. وفي كل مساء كنت تراهم عائدين من المدينة إلى براريكهم؛ في تطلع وخفة وكأنهم راجعون إلى قصور فخمة" (أنقار، مرجع سابق). وكأنا بمحمد أنقار يقدم تجليا من تجليات واقع عاشه، واقع ما تزال كثير من ملامحه ظاهرة في أحياء هامشية، يعاني سكانها من هذا الوضع في كثير من ضواحي المدن الكبرى، وقد نتجت عنه، في زمننا هذا، مشاكل اجتماعية برزت معها ظواهر مثل الجريمة والمخدرات والتطرف... وغيرها من الظواهر التي وقفت عندها كثير من أبحاث علم الاجتماع.

ثمة صورة أخرى يقدمها السارد عن فضاء الباريو تتمثل في أن نمط عيش السكان/الشخصيات يتسم بالتعايش مع الآخر، وهو واقع ينسجم مع البنية التي ينتظم وفقها المكان، مادام الجامع بين هذه الكتلة البشرية هو فضاءات البراريك داخل حي باريو مالقة. من هنا، يظهر أن واقع التهميش لا يقتصر على الساكنة المغربية فقط، وإنما يشمل أيضا الإسبان الذين وفدوا إلى الباريو، وصاروا جيرانا للمغاربة، يتقاسمون معهم المكان بالرغم من ضنك العيش وقسوته، فتبادلوا في ما بينهم التجارة، كما شاركوا بعضهم البعض أحاسيس الإعجاب والحب، دون تصريح بذلك في أغلب الأحوال، إلى أن غادروه بعد استقلال المغرب عن إسبانيا: "ها هي سنوات العقد الستيني قد بدأت تتلاحق. الهجرة على أشدها من الباريو ومن تطوان نفسه. اختفى كاصانيجا من وراء الدار بكل غموضه وأسراره، واختفت ماروخا، واختفى سبستيان وخوصيفا بعد أن باعا برّاكتهما لعلي وعويشة" (أنقار، مرجع سابق).

يكشف هذا الواقع عن الرؤية المغايرة التي يعود من خلالها محمد أنقار إلى تاريخ المغرب إبان فترة الاحتلال الإسباني، ذلك أنه لم يعمد إلى رصد ما دأبت روايات طور التأسيس على تناوله؛ من مقاومة للمحتل وتبيان نضالات المقاومة للتخلص من أغلال الظلم والتسلط، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وإنما نحا هنا إلى نزعة مغايرة، ألمحت، هي الأخرى، إلى المحتل وقيوده الظالمة على السكان؛ كما بين ذلك الفقيه الصنهاجي الذي أفصح عن هواجسه الوطنية حين اعتبر أن "السلطات الحامية تناست الدراويش في براريكهم، ومع مرور الوقت غدا المؤقت دائما. ذاك شأن الاستعمار باستمرار.." (أنقار، مرجع سابق)، ولم يكن أمامه من بد إلا إبداء التطلع إلى الاستقلال بالدعاء: "سأرفع كفي تضرعا إلى الله تعالى ليهزم الظالم.." (أنقار، مرجع سابق). غير أن هذا الموضوع لم يكن الأساس الذي انبنت عليه أحداث الرواية، لأن هذه الدلالة لم تحضر إلا بنوع من الإيحاء العابر. وبالمقابل، انصب الاهتمام في المتن الحكائي على تقديم النماذج البشرية التي تتحرك في فضاء باريو مالقة، بالتركيز على أوضاعها الاجتماعية في ظل واقع التهميش الذي يعانيه المغاربة والغجريون، بل أيضا ضعفاء الإسبان الذين استقروا بالباريو، فصارت المشاهد التي يقف عندها السارد تقدم صورة عن "جغرافية تستحق تأملا عميقا، خاصة في وضع حضاري ثقافي وتاريخي كالوضع العربي" (نجمي، مرجع سابق)؛ ذلك أن ظروف نشاة البراريك وطبيعة الساكنة التي جعلت من فضاءاتها مستقرا لها ظلت تتكرر حتى بعد التخلص من سطوة المحتل، ومن هنا تبدو العودة إليها من قبل الروائي خلال الألفية الثالثة بمثابة نقد لواقع جديد كرّس الهشاشة والفقر وأنتج ظواهر اجتماعية عديدة أثَّرَت في بنية المجتمع وتنميته.

ج- العابرون من البراريك:

خاصة منهم الباعة والحرفيون المتجولون من المغاربة والإسبان، ومنهم: كاوي الأواني، شاحذ المُسيات والخناجر، بائع الأثواب، بائع الأواني، جامع الضفادع، العجوز بائعة الرمل الأصفر، بائع الورق الرقيق، صاحب الخبيزات الحلوة، بائع التفاح المغلف بالحلوى، بائع حلوى البيلولين، اليهودي جامع المستعملات.

والملاحظ أن حضور هذه الأصناف المختلفة من الباعة المتجولين، يشير إلى الحركية الاقتصادية التي يتميز بها باريو مالقة، حيث يتم الربط بين داخل الحي وخارجه، وهو ما يعني "تمكن الباعة المتجولين من وصل البراريك بعوالم المدينة"(أنقار، مرجع سابق). وقد عمل السارد على تتبع مواصفاتهم وعلاقتهم بسكان الحي ونظرة هؤلاء لهم، وخاصة الأطفال الذين "اعتبروهم كائنات أساسية في حارتهم. ورغم أنهم كثيرا ما شاكسوهم فقد رأوا فيهم مخلوقات بشرية لا يفترقون عن آبائهم في طلب العيش البسيط" (أنقار، مرجع سابق).

إن الفقر الذي غالبا ما يعانيه سكان الهامش، كما هو الحال في باريو مالقة، يدفع إلى اعتماد نمط اقتصادي خاص، عماده القدرة الشرائية التي تفرض توظيف منتجات استهلاكية تراعي الدخل المحدود للساكنة، ولذلك لا يمكن أن تسهم هذه الحركة الاقتصادية في تغيير الوضع القائم، والارتقاء بالوضع الاجتماعي الذي انعكس على الشخصيات والعلاقات الرابطة بينها، ولكنها تكشف هي الأخرى عن صورة وضعية معيشية موازية للأحوال الاجتماعية، لا تتجاوز حدود الانعكاس المرآتي للفقر والبؤس، ومحاولة مواجهة المصاعب من أجل البقاء واستمرار الحياة.

د- الطفولة والأمل في المستقبل:

بالرغم من كل مظاهر البؤس التي ارتبطت بفضاء الباريو إلا أنه ثمة أمل في تجاوز هذا الواقع وتغيير الأحوال المعيشية فيه، كما يظهر ذلك من خلال التعلق الذي أبدته الشخصيات بالمكان في ظل غياب البديل؛ الأمل الذي يبدو حضوره جليا من خلال اختيار السارد "الطفولة" بطلا إلى جانب "الباريو"، ذلك أننا نرى مسار الأحداث يتتبع في كثير من فصوله الأحداث المرتبطة بالأطفال الذين شكلوا "جماعة طوريطا" (سلام، المديني، الشريف، محمد العربي)، فرَصَدَ السارد حواراتهم وألعابهم وأحلامهم وعلاقتهم بمدرسة الزواق ونظرتهم إلى المحتل وإلى الحي وسكانه، وذلك بوصفهم الفئة الاجتماعية التي عبْرها سيتشكل المستقبل في ظل ظروف الهشاشة التي نشأت فيها. غير أن أهم ما أثار الأطفال وأسرهم، وشغل أيضا السارد على امتداد هذا النص، يتحدد في الرعب الذي خلفه الفتوات في ظل عمليات الخطف التي استهلت بها أحداث الرواية، فتطلعوا إلى البحث "عن الأمان وعن الحامي الذي يمكن أن يحرسهم من البطش المتربص بهم في كل أرجاء الباريو. بطش قاهر رهيب لا يستطيعون أن يتفادوه إلا بالصمت واتخاذ الحيطة" (أنقار، مرجع سابق). وقد قدم السارد صورة عن مشهد الاغتصاب الذي يتعرض له الطفل وآثاره النفسية عليه في فصل خاص عنونه باغتصاب، كما خصص فصلا لجنازة "صبي الكنيسة" هذا بعد الأثر النفسي الذي خلفه فيه فعل الفتوات به، مبرزا بذلك ملمحا آخر من ملامح الخضوع والاستسلام للرعب والتخويف، مع ما يعنيه ذلك من آثار اجتماعية ونفسية انعكست على هؤلاء الأطفال، الذين تطلّعوا إلى الخلاص من الفتوات وواقع البطش والهمجية الذي فرضوه على مجتمع الباريو. وبأحداث من هذا القبيل يترسخ حضور فضاءات الباريو في الوجدان والذاكرة لدى السارد كما المتلقي أيضا، ويتبلور ما سماه ياسين النصير "الشحنة المكانية" التي عرفها بأنها "حضور لتاريخ المكان خلال اللغة" (النصير، 2010)، مما يؤكد أن لغة الحكي الروائي عن عالم الأطفال في الفضاء الهامشي ليست بريئة، وإنما حبلى بالإيحاءات، إنها تستضمر صورا تجعل المكان والشخصيات والزمان والأشياء مدمجة في ما بينها لتشكّل الفضاء الذي يريده الروائي، وتستشرف معالم المستقبل من خلال واقع الأطفال فيه وقدرتهم على تحدي القهر والاستمرار في الحياة أملا في التغيير.

2- باريو مالقة فضاءً لإعادة بناء الذاكرة:

غالبا ما يطرح حضور الذاكرة في الرواية سؤال العلاقة بين تمظهرات الذاكرة المكانية والتاريخ، وكذا تصور الذات لهذا التاريخ الذي يمثل جزءا من ماضيها، على عدّ أن هذه الذات ظلت تحتفظ به في كينونتها، ولم تتوقف عند حدود ربطه بها بالشكل الذي يجعل منه جزءا لا يتجزأ من الهوية الشخصية، إذ يتحول الفضاء إلى صور مرتسمة في الذاكرة تتم صياغتها اعتمادا على لغة سردية تتخذ في كثير من الأحيان الوصف آليةً لنقل تفاصيله التي لا تخرج عن المنطلق التخييلي، إلا أن الصورة التي تتشكل من خلال كثير من هذه التفاصيل تجعله جزءا من الواقع والحقيقة، ما دام أن الوجود الجغرافي والاجتماعي لفضاء الباريو ما زال حاضرا في مدينة تطوان؛ ولعل هذه العودة إلى بدايات نشأته تقدم صورة للعوالم الممكنة عبر لغة الوصف التي تعيد إنتاج الواقع، علما أننا يجب أن نستحضر أنه "بمقدار كونها إعادة إنتاج حقيقي للواقع لا بد أن يكون متيسرا العثور على الكلمات التي تقدم وصفا مفهوما على نطاق واسع للعالم الواقعي (ورنوك 2007)، مع ما قد يعني ذلك من إعادة رسم الفضاء في ارتباط بالمواقف والرؤى التي تشكلت قبلا عنه، وبالاستناد أيضا إلى وعي جمالي من شأنه دفعنا إلى أن "نستمتع استمتاعا قويا بتجربة جمالية" (ورنوك، مرجع سابق) ظلت محفورة في الذاكرة؛ أتاح الفن الروائي التعبير عنها بالحكي سردا ووصفا، بالشكل الذي يدفع في كثير من الأحوال إلى التساؤل عن الحدود الفاصلة بين الواقعي والمتخيل، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالفضاء المكاني.

تبعا لذلك يبدو أن اختيار "باريو مالقة" عنوانا للرواية يعكس وعيا بالدور الوظيفي للفضاء، ليس في أحداث هذه الرواية فقط، ولكن بعدّه فضاء مرجعيا، يشير في حاضرنا إلى حي من أحياء الهامش في مدينة تطوان، عملت الرواية على جعله العنصر الذي تمحورت حوله الأحداث وتبلورت العلاقات بين الشخصيات، وقدمت صورة عنه خلال فترة تاريخية هامة من تاريخ المغرب، وكأنّا بالرواية تتحول إلى وثيقة تاريخية بديلة للتاريخ الرسمي الذي أولى اهتماما أكثر بالتحولات الكبرى، دون الوقوف عند التفاصيل والجزئيات، بخلاف الرواية التي تنطلق من التخييل لتعيد الذاكرة إلى التفاصيل الصغرى وتدفع إلى التأمل في أحداث عابرة وعلاقات إنسانية أكثر عمقا ودلالة، يمكن الإفادة من إيحاءاتها في حياتنا، بحكم أن الذاكرة تمثل جزءا من الوعي الإنساني بالذات وخصوصياتها في إطار الإحساس بالزمن، وهو ما يدفع إلى اتخاذ مواقف تجاه مختلف العناصر التي تؤثث الفضاء المحيط بهذه الذات.

لا غرابة، إذن، في عدّ الوقوف بالمكان أو التأمل فيه يمثل شكلا من أشكال اشتغال الذاكرة؛ والحكي عن الباريو بوصفه مكانا مرجعيا يجسد أحد تجليات هذا التأمل، ذلك أنه من خلال العودة بالذاكرة إلى التنشئة الاجتماعية والنفسية للكاتب، والطريقة التي تم عرض أحداث الرواية بها داخل هذا الفضاء، يؤكد السلطة التي تمارسها الذاكرة بأبعادها المتخيلة، فهي تعيد الحياة إلى المكان كما كانت في ماضيها، ولكن من منظور جديد يستفيد، دون أدنى شك، من تجربة الفرد في الحياة ومواقفه منها، فضلا عن كونها توهم بالتماهي القائم بين الكاتب والسارد.

إنه من شأن هذا الربط بين الماضي وتجارب الحياة المختلفة أن يسهم في الإيحاء بالتداخل بين الأزمنة، فيكون بإمكاننا استعادة الماضي وما يحمل من ذكريات، تلتقط صورها من خلال اشتغال الذاكرة عبر المحاكاة أو الأحاسيس التي تدفعها إلى التأمل في المكان بحثا عن تجليات الذات فيه، كما يخول أيضا استشراف المستقبل والتنبؤ به بواسطة الخيال، لأنه كما يؤكد باشلار يستحيل تمثل المستقبل إلا بالتنبؤ، معبرا عن ذلك بتساؤل: "كيف يمكن التنبؤ بالمستقبل دون تخيل؟" (باشلار، مرجع سابق).

لا شك في أن التجربة الواقعية التي عاشها الكاتب بالحي انعكست صورتها التخييلية على عمله الإبداعي الروائي هذا، إذ إن كثيرا من أحداث مرحلة الطفولة، التي تتبع المتن الروائي تمفصلاتها، شكّلتْ امتدادا لترسبات حياة الطفولة عند الكاتب، كما كشفت عن وعي بآثار هذه التجربة، خاصة أن الطبيعة الإنسانية تفرض إقامة الإنسان علاقة حميمية بالمكان الذي يسكنه، كما يمكن أن يربط به علاقة عدائية أيضا، على حسب الصدى الذي خلفه المكان في الذاكرة، فبالرغم من المعاناة في مكان هامشي مثل الباريو، إلا أن سكانه "عرفوا بين أحضان دور الصفيح السعادة والحب وضنك العيش" (أنقار، مرجع سابق)، وهي أحاسيس متباينة، ستبقى، بالضرورة، ذكرى من ذكريات "بيت الطفولة" الذي لن يخرج عن أن يكون "مكان الألفة ومركز تكييف الخيال. فعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين كان يوفرهما لنا البيت" (هلسا، (مقدمة جماليات المكان) 1984). وها هم الوافدون الجدد على "الباريو" تشدهم الذكرى إلى ماضيهم، واحتفظوا بما يرمز إلى هذه الذكرى في حاضرهم، ذلك أنهم "حنّوا إلى قراهم الأصلية وقد تخلوا عنها إلى الأبد، واحتفظت أغانيهم وأمثالهم وخوارقهم وعاداتهم بأصداء ذلك الحنين نابضة بالدفء والشجن" (أنقار، مرجع سابق).

إن جعلَ الروائي فضاءَ "باريو مالقة" إطارا تتمحور حوله الأحداث وتتنامى، وهو في الآن نفسه يمثل المكان الذي عاش فيه الكاتب مرحلة الطفولة، يؤدي بنا إلى القول إن توظيفه هنا يحضر ببعده التخييلي الذي يفرضه الانتماء الجنسي إلى فن الرواية، مادام كل عمل روائي هو بالضرورة قائم على عنصر الخيال، غير أنه يدفعنا أيضا إلى ربط هذا الفضاء بمرجعه الذي يستدعي تَمَثُّلَ حي باريو مالقة بعدّه فضاءً واقعيا، يحظى بحمولة تاريخية وذاكرة من شأنهما الإفصاح عن المستور الذي تتحاشى الذاكرة الجمعية والتاريخ الرسمي البوح به.

إننا بصدد عملية إعادة بناء للذاكرة، ومن ثم لن تكون هذه الذاكرة مجرد "نسخة حقيقية من العالم، على عكس أقراص الفيديو الرقمية أو التسجيل المرئي. ربما يكون الأكثر فائدة هو التفكير في الذاكرة بصفتها تأثير العالم على الفرد" (فوستر، 2014). ولا غرو في ذلك، ما دامت العودة إلى ماضي باريو مالقة لن تكون نسخة مطابقة له كما كان إبان الاحتلال الإسباني، لأن عملية بناء الذاكرة لا بد أن تتدخل فيها المشاعر والأحاسيس والمواقف والاختيارات الإيديولوجية والتموقع الثقافي؛ إنها بمعنى آخر "مزيج من مؤثرات العالم وأفكار المرء الخاصة وتوقعاته" (فوستر، مرجع سابق). يمثل لذلك جونثان كيه فوستر قائلا: "ستكون تجربة كل شخص خلال مشاهدته فيلما مختلفة إلى حد ما؛ لأن كل فرد مختلف عن الآخر، ويعتمد على أحداث ماضية شخصية مختلفة، وله قيم وأفكار وأهداف ومشاعر وتوقعات وحالات مزاجية وتجارب سابقة مختلفة" (فوستر، مرجع سابق). وتجربة الكاتب مع فضاء باريو مالقة، لا تخرج هي الأخرى عن هذا الإطار الذي تبنى الذاكرة عليه، فصورة العناصر التي تتحرك في هذا الفضاء تتحكم في تشكيلها الخلفيات الثقافية والمعرفية والإيديولوجية التي تشبع بها الكاتب، التي ستجعله، بالضرورة، فضاء متخيلا بتشكلات دلالية واقعية، أتاحها لها الفن الروائي بوصفه "جنسا أدبيا لا يتأسس على الادعاء بأن ما يتخذه من موضوع ذاكراتي يتصل بحياة الكاتب الحقيقية" (جيران،2019)، إذ بالإمكان رصد الفضاء بدقة وتفصيل، لكن في ارتباط دائم بالمنظور الذي أراده الكاتب، وقد يتوافق ذلك مع الواقع كما أنه قد يختلف معه ليمثل ضربا من التخييل الذي لا يمكن تجاهل حضوره في الرواية.

لقد رسم الروائي صورة دقيقة لهذا الحي، على عدّ أنه يمثل بالنسبة إليه جزءا لا يتجزأ من حياته الواقعية، ذلك أنه يرتبط ببناء شخصيته، إذ أسهم في تشكيل كيانه الذي تحققت له علاقة وطيدة بهذا المجال الجغرافي، فمسار الطفولة الذي عاشه "محمد أنقار" يبدأ من هذا المكان، حيث إن تجربته في الحياة تعود بنا إليه حينما تتحقق لنا معرفة بكونه ولد بالمدينة العتيقة بتطوان، قبل أن ينتقل مع أسرته وهو في سنته الرابعة إلى الاستقرار بباريو مالقة، الحي الهامشي الذي أنشأه الاحتلال بطابعه العمراني الذي يفتقد الشروط الإنسانية للعيش الكريم، بالرغم من توفر الحي على مرافق اجتماعية من قبيل المستشفى والمدرسة، لتكون أحداث الباريو بمثابة عودة إلى الذاكرة التي من شأنها أن تدفع إلى "توهج الصور" ليتردد "الماضي البعيد بالأصداء" (باشلار 1984) على حد تعبير غاستون باشلار.

خاتمة:

استنادا إلى كل ما سبق ذكره، نستطيع القول إن رواية "باريو مالقة" استطاعت تقديم رؤية تأويلية لواقع مجتمع الشمال المغربي خلال مرحلة الاحتلال؛ رؤية مغايرة للمألوف في الكتابات الروائية التي اهتمت بالتاريخ الوطني، ذلك أنها تجاوزت الحدود التي توقفت عندها الرواية الكلاسيكية بتتبع أشكال المقاومة والنضال ضد المحتل، وظلت تلمّح إلى صور وأوجه التسلط والقهر والظلم الذي فرضَه على المجتمعات الهامشية، في مقابل التنوير والحماية اللذين يدعيهما؛ وإن كنا نسجل أنها لم تغفل تأكيد البعد الحميمي الذي أسهم فضاء الباريو في خلقه بين المهمشين الإسبان والمغاربة، حيث رصدت الرواية كيف أسهم الوجود بالفضاء الهامشي في بلورة أحاسيس الحب وحسن الجوار الواحد بدل المعاداة التي ألفناها تجمع المستعمِر بالمستعمَر، وهو ما قد يبدي نوعا من

التطبيع مع الاحتلال، والحال أن الرواية تجاوزت مسألة التأريخ للمقاومة والنضال، وسعت بالمقابل إلى تقديم رؤية تأويلية مغايرة للتاريخ، لا تخوض في الأبعاد الإيديولوجية إلا بالقدر الذي تتيحه طبيعة الشخصيات الهامشية التي تتحرك في الباريو، مع العلم أن تجربة الكاتب الواقعية في الباريو دفعته إلى إعادة بناء ذاكرة المكان بالشكل الذي يدمج بين التخييلي والواقعي، وكأنّا به يوهمنا أننا بصدد يوميات محمد أنقار/الكاتب في الباريو خلال مرحلة الطفولة وتأملاته فيها.

لقد اتخذ أنقار "باريو مالقة" فضاء للذاكرة والربط بين ماضي النشأة فيه وحاضر التأمل في هذه النشأة، وذلك من منطلق الوعي الثقافي والإيديولوجي الذي من شأنه أن يخول له توظيف طاقة تخييلية للعودة إلى هذا الفضاء وتتبع حركية الشخصيات فيه، والبوح بحب المكان والاعتزاز به، بالرغم من معاناة الوجود والتطلع إلى الكرامة الإنسانية؛ التي لا تتحقق بالاستقلال فقط، وإنما ببناء الإنسان وتنشئته بعيدا عن التهميش والتحقير والتسلط والظلم...إلخ؛ وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى الشعور بفقدان الهوية والقيم الإنسانية النبيلة؛ القيم التي أضحت مجتمعات الألفية الثالثة في ظل العولمة الثقافية بحاجة ملحة إليها، حيث أضحى الإبداع الأدبي الذي يمتزج فيه الواقعي بالتخييلي يعبر عنها، ومنه الخطاب الروائي الذي يتخذ السردَ آليةً للكشف عن كثير من قضايا هذه المجتمعات، كما هو الحال مع هذه الرواية؛ حيث اتضح أنها مثلت منطلقا لإبراز واقع فضاء الهامش في علاقته بتجربة الإنسان الزمكانية، علاقته بنفسه وعلاقته بالآخر وبمحيطه، وكذا بالقيم الثقافية التي يفرضها الوجود الهوياتي للإنسان في المكان.

المصادر والمراجع

أنقار م (2015)، باريو مالقة، الطبعة الأولى، تطوان، باب الحكمة، صص 15-19-22-29-31-37-38-44-45-46-51-76-203-205-377

الجزار م ف (1998)، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الطبعة الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص19

الشيخ ز.د.ز.س (2019)، التشكيل الفضائي في الرواية العربية، الطبعة الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص36

النصير ي (2010)، شحنات المكان، الطبعة الأولى، الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، ص7

باشلار غ (1984)، جماليات المكان، [ترجمة] غالب هلسا، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص9

بلشم م (2018)، شعرية الفضاء في الرواية الجديدة (مقاربة في النقد الجغرافي)، الطبعة الأولى، إربد، عالم الكتب الحديث،ص184

بوتور م (1986)، بحوث في الرواية الجديدة، [ترجمة] فريد أنطونيوس، الطبعة الثالثة، بيروت - باريس، منشورات عويدات، ص44

جبار، س (2012)، من السردية إلى التخييلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، الطبعة الأولى، الرباط، دار الأمان، ص61

جيران، ع.ر (2019)، الذاكرة في الحكي الروائي: الإتيان إلى الماضي من المستقبل، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص142

فوستر،ج ك (2014)، الذاكرة: مقدمة قصيرة جدا، [ترجمة] مروة عبد السلام، الطبعة الأولى، القاهرة، هنداوي للتعليم والثقافة، ص17

كرامش، ك (2010)، اللغة والثقافة، [ترجمة: أحمد الشيمي]، الطبعة الأولى، قطر، وزارة الثقافة والفنون والتراث، ص16

كرانغ م (2005)، الجغرافية الثقافية، [ترجمة] سعيد منتاق، سلسلة عالم المعرفة، عدد 317، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص62

لحمداني، ح. (1985) الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي: دراسة بنيوية تكوينية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، دار الثقافة، ص107

محفوظ، ع ل (2009)، وظيفة الوصف في الرواية، الطبعة الأولى، الجزائر، منشورات الاختلاف/ بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص13

نجمي ح (2000)، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، صص72، 39

واثيونغو، ن (2011)، تصفية استعمار العقل، [ترجمة: سعدي يوسف]، الطبعة الأولى، دمشق، دار التكوين، ص20

ورنوك، م (2007)، الذاكرة في الفلسفة والأدب، [ترجمة: فلاح رحيم]، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، صص140-219

يقطين س (1997)، قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، صص244-246

l'espace,3éme Ed, Paris,Presses Universitaires de France, p25-32 Bachelard G (1961), la poétique de

Paris, Seuil, p56. Genette G (1969), Figures II, 1ére Ed,

الطائى، ص (2015)، المدينة وهوامشها، الموقع الإلكترونى لجريدة القدس العرب، وضع بالموقع فى 22 سبتمبر 2015، اطلع عليه بتاريخ 15 فبراير2020:

https://www.alquds.co.uk/%ef%bb%bf%d8%a7%d9%84%d9%85%d8%af%d9%8a%d9%86%d8%a9-%d9%88%d9%87%d9%88%d8%a7%d9%85%d8%b4%d9%87%d8%a7/

References

Al-Ta'i, S. (2015), The City and Its Margins, Al-Quds Al-Arab Newspaper's website, posted on the website on September 22, 2015, accessed on February 15, 2020:

https://www.alquds.co.uk/%ef%bb%bf%d8%a7%d9%84%d9%85%d8%af%d9%8a%d9%86%d8%a9-

%d9%88%d9%87%d9%88%d8%a7%d9%85%d8%b4%d9%87%d8%a7/

Ankar M. (2015). Barrio Malaga, first edition, Tetouan, Bab al-Hikma,pp 15-19-22-29-31-37-38-44-45-46-51-76-203-205-377

Asheikh Z.D.Z.S. (2019), Space Formation in the Arabic Novel, First Edition, Cairo, Egyptian General Book Authority,p36

Bachelard G (1961), The Poetics of Space, 3rd Ed, Paris, University Press of France, pp25-32

Bachelard G. (1984), The Aesthetics of Place, [Translated by Ghaleb Halsa[, second edition, Beirut, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution,p9

Balsham M (2018), Space formation in the Arabic novel (Approach to Geographical Criticism), First Edition, Irbid, Modern Book World, p184

Butor M (1986), Memoirs in the New Novel, [Translated by Farid Antonios[, third edition, Beirut - Paris, Oweidat Publications,p44

Crang M (2005), Cultural Geography, [translated By Said Mantaq[, World of Knowledge Series, No. 317, Kuwait, The National Council for Culture, Arts and Letters, p62

El-Gazzar M.F. (1998). Title and Semiotics of Literary Communication, (1st) , Cairo, General Book Organization,p19

Ennaseer Y (2010), Space shipments, First Edition, Doha, Ministry of Culture Arts and Heritage, p7

Foster, J.K. (2014), Memory: A Very Short Introduction, [Translated by Marwa Abdel Salam[, first edition, Cairo, Hindawi for Education and Culture, p17

Genette G (1969), Figures II, 1st Ed, Paris, Threshold, p56.

Jabbar S. (2012), From Narrative to Imaginary: A Research on Some Semantic Forms in the Arabic Narrative, First Edition, Rabat, Dar Al-Aman, p61

Jeeran A.R. (2019), Memory in Narrative Storytelling: Coming to the Past from the Future, first edition, Beirut, United New Book House, p142

Karamish, K (2010), Language and Culture, [Translated by: Ahmed Al-Shimi], first edition, Qatar, Ministry of Culture, Arts and Heritage, p16

Lhamidani, h. (1985) The Moroccan Novel and the Vision of Social Reality: A Formative Structural Study, First Edition, Casablanca, House of Culture, p107

Mahfouz, A. L. (2009), The Function of Description in the Novel, First Edition, Algeria Difference Publishing House / Beirut, Arab House of Science Publishers, p13

Najmi H (2000), Poetics of imaginary space and Identity in the Arabic Novel, first edition, Casablanca, Arab Cultural Center, pp39-72

Warnock, M (2007), Memory in Philosophy and Literature, [Translated by Falah Rahim], first edition, Beirut, United New Book House, pp140-219

Wathiongo, N (2011), Decolonizing the Mind, [Translation Saadi Youssef], first edition, Damascus, Dar Al-Takween, p20

Yaqtin S. (1997), the narrator said (The Narrative Structures in the Popular Biography), first edition, Casablanca, Arab Cultural Center, pp244-246